المحاضرة الثانية

سورية في الألف الثالث قبل الميلاد

شهدت سورية في الألف الثالث قبل الميلاد تحولات كبرى على الصعيد السياسي تجلى بوضوح بنشوء مملكة قوية في قسمها الشمالي هي مملكة إبلا.

مملكة إبلا:

تقع إبلا Ebla في موقع تل مرديخ الحالي الواقع بالقرب من بلدة سراقب في محافظة ادلب. على بعد جنوب غرب حلب, ولقد لفت التل انتباه علماء الآثار إليه سواء بشكله الكبير أو من خلال بعض اللقى الأثرية الملتقطة على سطحه(كسرات فخارية – حوض حجري قديم عليه منحوت نافرة).

لقى من إبلا

نقبت عنه بعثة ايطالية برئاسة الآثاري باولو ماتييه Paolo mathiae وكان قد قام بزيارة تل مرديخ 1962 بعد أن شاهد في متحف حلب الحوض الحجري البازلتي.

يتصف تل مرديخ بأنه كبير له شكل شبه منحرف تقريباً تبلغ مساحته ستة وخمسين هتكارا .

يتألف من مرتفع مركزي (أكروبول) بنيت فوقه الأبنية الرسمية كالقصور والمعابد. ومن منطقة سهلية كانت توجد فيها أحياء المدينة ممتدة على شكل دائري (المدينة السفلى) يحيط بها إكليل مرتفع يدل على سور المدينة, وتظهر في هذا الإكليل أربعة انكسارات في الجنوب الغربي و الجنوب الشرقي والشمال الغربي والشمال الشرقي, وهب تدل على مواقع بوابات المدينة القديمة.

المخطط والأكروبول

كانت نقطة البداية معرفة اسم وتاريخ تلك المدينة التي بنيت في موقع تل مرديخ وازدهرت في أقدم العصور, في العثور عام 1968م على جذع تمثال لرجل ملتحي نُحت من حجر الصوان (البازلت الأسود) فُقد رأسه وجزء من كتفه الأيمن.

تكمن أهمية هذا الاكتشاف انه يحمل على صدره نقشاً مؤلفاً من ستة وعشرين سطراً بالخط المسماري واللغة الأكادية, وهو عبارة عن نقش نذري أمر بكتابته إبيط- ليم Ibbit- lim أحد ملوك إبلا في بداية الألف الثاني ق.م.

ويتحدث عن تقديم نذراً للإلهة عشتار آلهة الحب والحرب والخصب المشهورة, وهو عبارة عن حوض ماء لغرض النظافة, أما التمثال فيعد تمثالا نذرياً أمر الملك بنحته وتقديمه هدية للإلهة عشتار لنصبه في معبدها بغرض الحصول على بركاتها وحمايتها. والمثير في هذا النقش أنه ورد اسم إبلا مرتين فقاتلوا إن تل مرديخ هو إبلا.

تمثال إبيط- ليم

اكتشاف المحفوظات الملكية وأهميتها:

إن المختصون في تاريخ الشرق الأدنى القديم شككوا في هذه المطابقة بين تل مرديخ وإبلا, وقالوا أنه من المحتمل أن جذع التمثال تم نقله من موقعه الأصلي الذي كان منصوباً فيه غلى تل مرديخ.

واستمر الحال حتى عام 1974م عندما تم العثور في إحدى حجرات القصر الملكي على 42 لوحاً وكسرة طينية تحمل كتابات بالخط المسماري. وعثر 1975م على نحو خمسة عشر ألف لوح

وكسرة طينية مكتوبة بالخط المسماري وعام 1976 نحو ألف وخمسمائة لوح فبلغ مجموع الرقم نحو سبعة عشر ألف رقيم. وتعد إحدى أهم وأقدم المكتبات في الشرق القديم.

ليس هناك شكل موحد للرُقم فهي تختلف في الشمل والأبعاد ومعظمها صغير لا يتجاوز طوله بضعة سنتيمترات وأربعين سنتيمترا, وله شكل مربع أو مستطيل كالمعاهدات والقوائم المعجمية.

وهي:

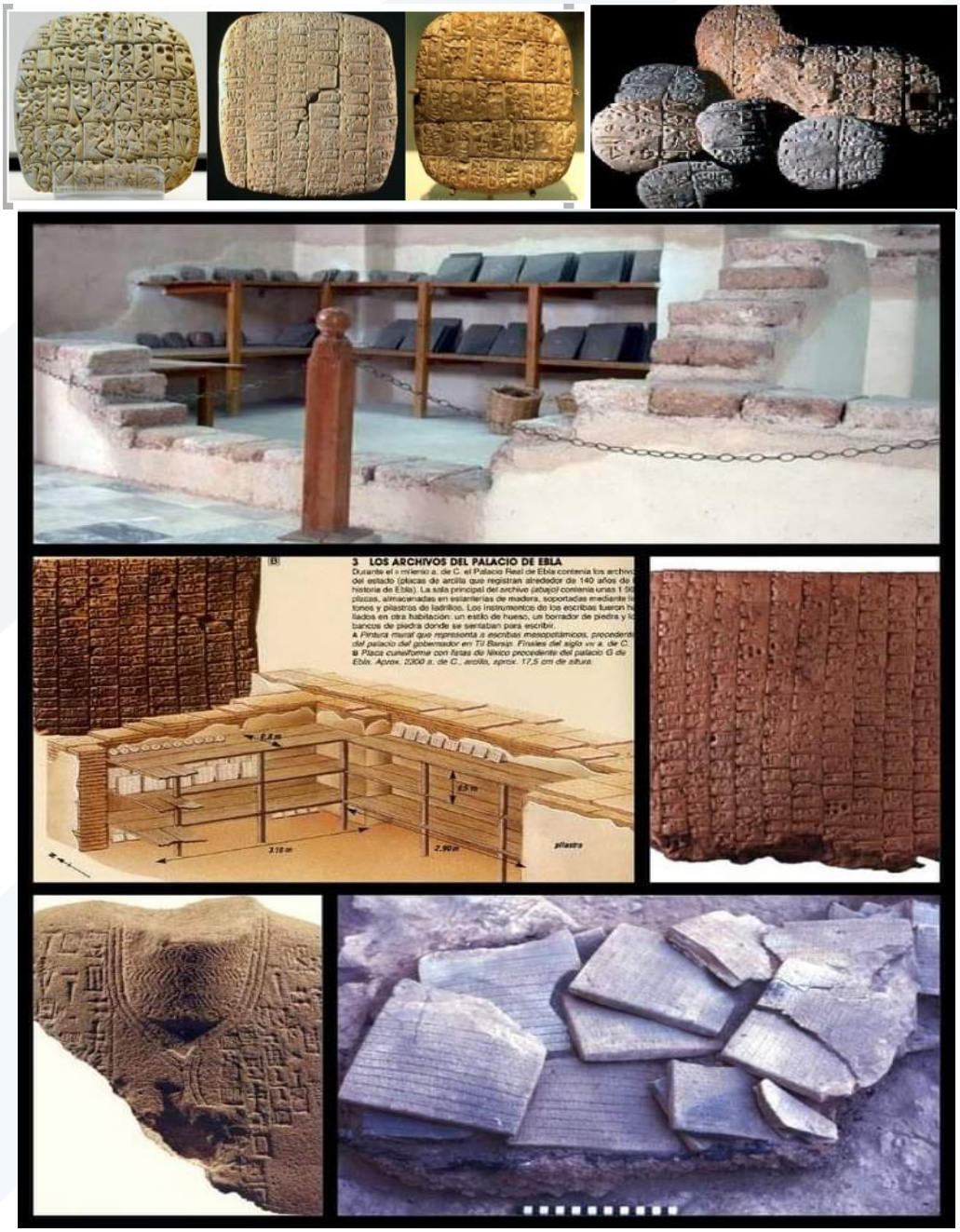

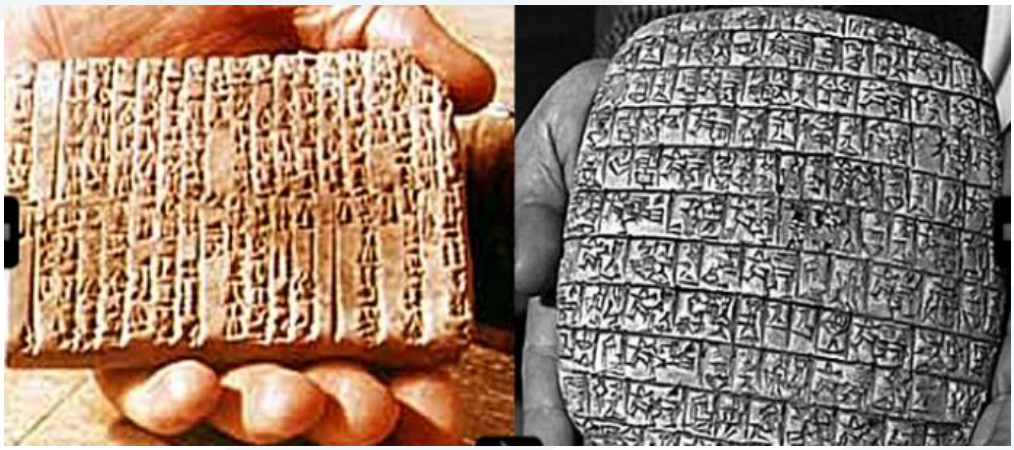

أشكال الرُقم

النصوص الاقتصادية والإدارية: تشكل العدد الأكبر من المخطوطات المكتشفة وتتعلق بشكل أساسي بالنشاطات الاقتصادية المختلفة من زراعة وحرفية وتجارية, لا سيما إنتاج المنسوجات وتوزيعها داخل مملكة إبلا أو تصديرها إلى الممالك المجاورة, وبالتالي فهي مفيدة في التعرف على مدى اتساع علاقات إبلا الخارجية وعلى مدى ضخامة إنتاجها الحرفي والزراعي والحيواني.

الرسائل والنصوص الدبلوماسية والتجارية: هي مجموعة من الرسائل والمعاهدات التي عقدها ملوك إبلا مع ملوك الممالك المختلفة وأشهرها تلك المعاهدة التجارية التي عُقدت مع مملكة أبارسال في بلاد الرافدين والرسالة المرسلة غلى ملك مملكة خمازي الواقعة شرقي نهر دجلة.

رقُم المعاهدة

النصوص الأدبية: أنها قليلة جداً إلا أنها أظهرت أنها أعمالاً أدبية رائعة, وهناك نصوص تتحدث عن شعائر زواج الملك والملكة وهي أشبه بنصوص الزواج المقدس السومرية.

القوائم المعجمية: وقد وضعت لمساعدة الكتاب في عمليات الترجمة في اللغات الأخرى, وتتألف من قوائم معجمية أحادية اللغة (سومرية أو إبلوية) وثنائية اللغة (سومرية- إبلوية) وهناك

قائمة مكتوبة مؤلفة من ألف وأربعمائة وسبع وخمسين كلمة سومرية مترجمة إلى الإبلوية وهي عبارة عن نص ثنائي اللغة نقشت عليه الكلمة السومرية أولاً, ثم نقشت عليها الكلمة الإبلوية.

معاجم

جاءت هذه المكتشفات لتبعد النظرة السابقة والسائدة التي كانت تقول أن سوريا كانت منطقة نزاع دائم بين الممالك والإمبراطوريات التي قامت سواء على شواطئ دجلة والفرات أو في هضبة الأناضول أو في وادي النيل. فجاءت لتغير تلك النظرة ولتبين أن سورية كانت في الألف الثالث قبل الميلاد مركزاً لمملكة قوية امتد نفوذها السياسي والاقتصادي والحضاري ليس على منطقة شمالي سورية وحدها بل على مناطق أخرى مجاورة. وأيضاً غيرت النظرة التي تقول أن الحضارات السابقة نشأت في وديان الأنهار, بل إنها نشأت بعيدة عن الأنهار واعتمدت زراعتها على مياه الأمطار خاصة.

تاريخ إبلا:

قال الباحثين إن اسم إبلا مشتق من كلمة (عبل) العربية إذ إن كلمة عبلاء تعني الصخرة أو البيضاء منها ورأى أن هذا يتطابق مع طبيعة التضاريس ولون التربة في تل مرديخ (هذا افتراض). وتدل المكتشفات أن إبلا بلغت عصرين من الازدهار والقوة.

حضارة إبلا في عصر المخطوطات الملكية:

نظام الحكم والإدارة: كانت تحكم من قبل حاكم يشار إليه باللقب السوري ((إن)) الذي يعني سيداً ويقابله في اللغة الإبلوية مَلَكو(م) Maliku(m) ملك.

يبدو أن النظام الملكي هو نظام الحكم الذي ساد في إبلا وغالباً ما كان الابن يرث أباه في سدة الحكم, ويذكر أن ملوك إبلا كانوا يؤلهون بعد وفاتهم, وتُقدم لهم الأضاحي

عرفت مملكة إبلا إلى جانب الملك مجلساً للشيوخ يُعرف باللغة الإبلوية باسم أبّو Abbu أي الآباء أو الشيوخ, ويبدو أن أعضاء هذا المجلس كانوا زعماء ووجهاء العائلات الغنية والمتنفذة في إبلا.

وكان هناك موظفين كبار يساعدون الملك لكن لم تذكر النصوص ووظائفه.

العلاقات السياسية والعسكرية: أقامت إبلا علاقات سياسية وعسكرية مع الممالك والدول المجاورة وهذا ما تشهد عليه عشر معاهدات أشهرها معاهدة أبارسال حيث كان يتضمن الرسالة عبارة أخي – أخوك وكان هذا أسلوب شائع.

لكن إبلا ارتبطت بعلاقات سياسية عسكرية مضطربة مع ماري, فإبلا كانت دولة منظمة, فأقاموا علاقات مع الممالك الأخرى المجاورة, وهذا يدل على الدور التاريخي الذي أدته سورية خلال الألف الثالث وهذا يدفعنا للقول إن مملكة إبلا كانت قوة سياسية واقتصادية بالدرجة الأولى.

الحياة الاقتصادية: قام اقتصاد إبلا على ثلاث دعائم رئيسة هي الزراعة والصناعة والتجارة, فشكلت خاصة التجارة أساس قوة إبلا وازدهارها,فالزراعة ازدهرت لان إبلا كانت لديها السهول الخصبة المحصورة بين الجبال الساحلية والهضاب المرتفعة في الغرب ومنطقة البادية السهلية في الشرق مناسبة للزراعة البعلية. إذ تتلقى كميات كبيرة من الأمطار, وقد استفاد أهل إبلا من مياه نهر قويق الذي كان يشكل مستنقعات المتخ شمال شرقي إبلا, وتتحدث نصوص المحفوظات الملكية عن النشاطات الزراعية وإنتاج المحاصيل المختلفة. فهناك نص يتضمن حساباً سنوياً عن مجموع محصول الحبوب لسنة واحدة في مملكة إبلا.

اهتم سكان إبلا إلى جانب الزراعة بتربية الماشية كالأغنام والأبقار, حيث توافر الغطاء النباتي ويذكر في أحد النصوص الذي هو عبارة عن حساب ميراث شخصي للملك اثنين وثمانين ألف رأس من الغنم وخمسة عشر ألف ثور مع قيمتهم بالذهب والفضة. ويذكر أيضا كمية من الفضة لشراء بضع مئات من رؤوس الأبقار. ويسجل نص ثان عدداً من رؤوس الأغنام قدره تسعة

وسبعين ألفا وثمانين رأساً من الثيران وستة وثلاثين ألفاً ومائة رأس من الأغنام. وهناك نصوص تتعلق بتوريد حيوانات إلى القصر الملكي من مزارع مختلفة لا تُذكر أسماؤها.

يبدو من هذا أن السلطة الإدارية في إبلا كانت تقوم بتعداد دوري للحيوانات الأهلية وتستوفي رسوماً وضرائب عنها كما يؤيد ذلك النص التالي.

وازدهرت في إبلا صناعات وحرف مختلفة في مقدمتها صناعة الأسلحة, ويبدو أن تقاليد الأنسجة الإبلوية توارثتها في العصور اللاحقة ممالك ومدن سورية أخرى. وعرفوا صناعة المفروشات الخشبية وزخرفها وتطعيمها, التي شهدت ازدهاراً . كما تدل على ذلك الآثار الخشبية المتفحمة التي اكتشفت, والتي تُظهر زخرفة ونحتا لأشكال مختلفة تمثل ملوكاً وأمراء وحيوانات ومشاهد حربية وصراعاً بين الحيوانات.

كما تتحدث بعض نصوص إبلا عن إرسال قطع من الأثاث الخشبي هدايا من ملك إبلا إلى ملوك المدن والممالك الأخرى. وقد ساعد على ازدهار هذه الصناعة سهولة الحصول على الأخشاب اللازمة من غابات الجبال القريبة من إبلا, ولا سيما الجبال الساحلية.

ويمكننا القول إن تقاليد هذه الصناعة الموغلة في القدم لا تزال حية أيضاً في ورشات الحرفيين في دمشق وحلب وبعض المدن السورية الأخرى حيث يتفنن الحرفيون في نحت وتطعيم القطع الخشبية المختلفة.

ومن الصناعات المختلفة التي عرفتها إبلا سبك وتصنيع المعادن والأحجار الكريمة التي كانت تستخدم لصنع المجوهرات والحلي والتماثيل والأواني المختلفة. واعتمدت هذه الصناعة أساسا على المواد المستوردة من البلدان الأخرى كالذهب والفضة والنحاس والقصدير وغيرها. وانحصر استخدام منتجات هذه الصناعة بين أفراد الأسرة المالكة وأبناء الأسر الغنية نظراً لارتفاع أسعارها. ومن المكتشفات المهمة العثور على أكثر من اثنين وعشرين كيلو غراما من اللازورد الخام في إحدى قاعات القسم الإداري من القصر الملكي.

مجوهرات من إبلا

ومن أشهر القطع الفنية المكتشفة تمثال ثور بري برأس إنسان (ارتفاعه 4,2 سم, وطوله 5سم, وعرضه 1,8سم) مضطجعاً واضعا يده اليمنى تحت جسمه بينما تمتد اليسرى قائمة أمامه , ويلتفت نحو المشاهد بزاوية قائمة, وقد صنع جسمه من الخشب وغُطي بصفائح من الذهب, وشعر عنقه من الستياتيت (حجر المطلق) الذي يتدلى على شكل حزوز مؤلفة من بضع طبقات من الخصلات المعقوفة في نهايتها. أما الوجه فقد شُكل من رقائق من الذهب, والعيون والحواجب كانت على ما يبدو منزلة بالصدف, أما القرون فقصيرة ومغطاة بصفائح ذهبية ومقوسة نحو الأعلى.

مما تجدر الإشارة إليه أن الذهب والفضة استخدما في إبلا وغيرها من ممالك الشرق القديم الأخرى وسيلة للتعامل والدفع, أي كنقد. حيث لم تكن هناك عملة مسكوكة.

يتضح من خلال نصوص المحفوظات الملكية أن التجارة كانت الركن الأهم من أركان الاقتصاد الإبلوي. ومما ساعد على ازدهارها وجود زراعة متطورة قائمة على الاستغلال الجيد للأراضي الزراعية, وقيام صناعة وحرف متقدمة فاق إنتاجها حاجة السوق المحلية. والأهم من كل ذلك موقع إبلا الجغرافي المتميز في منطقة تقاطع طرق التجارة العالمية الممتدة من إيران وبلاد الرافدين في الشرق إلى منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط في الغرب, ومن هضبة الأناضول في الشمال إلى بقية أنحاء سورية, بما في

ذلك فلسطين ووادي النيل والأطراف الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية في الجنوب, إضافة إلى قربها من غابات الجبال الساحلية وجبال الأمانوس وجبال لبنان الشرقية والغربية, تلك الغابات الغنية بالأشجار الصنوبرية(السرو- الأرز- الدلب- السنديان) مكن إبلا من جني أرباح كبيرة من وراء ذلك. كذلك كانت إبلا تراقب وتتحكم بطرق نقل المعادن الثمينة ولاسيما الفضة.

الحياة الدينية: أظهرت دراسة نصوص إبلا عدد من الآلهة التي كانت تعبد في إبلا ما يقارب الأربعين لكن أهمها:

- الإله نيداكول Nidakul
- كو- را Ku.ra اله القسم ليس فقط في إبلا
- الإله دامو Damu الإله الحامي للأسرة المالكة.
- الإله هدد Hadad اله الطقس
- عشتار Ashtar آلهة الحب والخصب والجمال.
- كبكب Kabkab اله الكوكب.
- ملك Malik الذي يملك كل شيء.
- بعلاتو Balatu هي آلهة مؤنثة من بعل اسمها يعني سيدة وتظهر في النصوص بصفتها زوجة الإله نيداكول.

تظهر إبلا على الصعيد الديني استقلالية عن بلاد الرافدين ومصر القديمة, والمعلومات تشير أن معابد إبلا لا تظهر أي دور للمعبد في الحياتين السياسية والاقتصادية بخلاف غيرهم.

عشتار

عصر ازدهار إبلا الثاني:

توقف ازدهار إبلا الكبير الذي عاشته في الألف الثالث ق.م . الذي يظهر واضحا من خلال نصوص المحفوظات الملكية, توقف لأسباب لا زالت غير معروفة حتى الآن لعدم وجود وثائق مكتوبة ' آثار تتحدث أو تشير إلى ذلك.

وتم معرفة الازدهار الثاني في إبلا من خلال الكتابة المنقوشة على جذع تمثال الملك(إبيط-ليم) التي كانت المفتاح لمطابقة تاريخ مرديخ مع إبلا. كما تم العثور على أختام وطبعات أختام اسطوانية تحمل بقايا أسماء أعلام أمورية.

كما تم العثور عن قصر ملكي يعود إلى هذه الفترة, يتألف من طابقين, ووحدات سكنية متجاورة تفصل بينها جدران متوازية.

تماثيل من إيبلا

منحوتات وبقايا القصر

بناء على ما تقدم يمكننا القول أن مدينة إبلا ازدهرت من جديد في بداية الألف الثاني قبل الميلاد, وحظيت باهتمام كبير من ملوكها. ومما يؤكد هذا القول إحاطتها بسور ضخم من التراب المختلط بكسرات من الفخار تعود إلى زمن تدميرها على يد نارام سين الأكادي

لكن على الرغم من الازدهار الكبير الذي عاشته إبلا ما بين 2000- 1600 ق.م والظاهرة آثاره في الأوابد المعمارية المذكورة(معابد- قصور), فإن محفوظات ماري الملكية التي تعود في معظمها إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. والتي تزودنا بمعلومات كثيرة عن العلاقات التي كانت قائمة آنذاك بين الممالك والمدن الرافدية والسورية المختلفة والتي تذكر مدنا سورية متعددة كحلب وكركميش وأجاريت وجبيل وحاصور , لا يرد فيها ذكر أية معلومة عن إبلا. والسبب هو انتقال الزعامة السياسية من إبلا إلى حلب التي أصبحت عاصمة أمورية مستقلة تسيطر على شمال سورية.

جَـامعة
المَـنارة
MANARA UNIVERSITY